

ديوان الإنشاء: وزارة الخارجية في الدولة الإسلامية

إبراهيم عبدالغني شحاتة

رسالة ماجستير، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، 1995

تأتي هذه الدراسة محاولة لاستكشاف ودراسة واحدة من المؤسسات التنفيذية الفاعلة التي عرفتها الدولة الإسلامية، والتي لعبت الدور الرئيس في صياغة وتنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية، وهذه المؤسسة هي ديوان الإنشاء.

فقد عرفت الدولة الإسلامية منذ تأسيسها على يد النبي عليه السلام في القرن السابع الميلادي جهازا لإدارة علاقاتها الخارجية قام بمهام الوظيفة الدبلوماسية والقنصلية للدولة الإسلامية، وقد عرف هذا الجهاز بديوان المكاتبات، كما عرف بديوان الرسائل، ومنذ منتصف العصر العباسي عرف بديوان الإنشاء. وتنبع أهمية هذه الدراسة من اعتبارين أساسيين: الأول، أنها تقدم صورة جهاز إدارة العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية على ضوء المصادر والمنهجية التي اتبعها الباحث وهو ما لم تقدمه لنا من قبل الدراسات الدبلوماسية العربية والأجنبية.

الثاني: أن دراسة هذا الديوان (ديوان الإنشاء) - وعلى ضوء نتائج الدراسة - تمثل أبجد المداخل الأساسية لدراسة مجمل النظم الدبلوماسية للدولة الإسلامية بما تمثله من أهمية على مستويات عدة.

وقد مثلت مصادر الدراسة واحدة من الصعوبات الأساسية التي واجهت الباحث، وتبعاً لذلك فقد استعانت الدراسة بمصادر متنوعة تراثية ومعاصرة، تاريخية، وأدبية، وسياسية، ودبلوماسية ووثائقية لتقدم صورة ديوان الإنشاء كما عرفت الدولة الإسلامية. كما وظفت الدراسة أكثر من منهجية لدراسة ديوان

الإنشاء في جوانبه المختلفة، فاستخدم الباحث - تبعاً لطبيعة الظاهرة - منهجاً تاريخياً تحليلياً: مثل فيه الديوان وحدة التحليل الأساسية، فضلاً عن وحدات تحليل فرعية على مستوى الوحدة المؤسسية النظامية، وعلى مستوى الوظيفة، والأدوار، في إطار تلك الوحدة.

وجاء التحليل وفق مستويين: الأول مستوى ستاتيكي، تناول الهيكل التنظيمي للديوان بكل وحداته ومفرداته كما عرفته الدولة الإسلامية، فغلب المنهج المؤسسي والوظيفي على التحليل وفق هذا المستوى. الثاني: مستوى ديناميكي: تناول الديوان وهو يمارس مهامه، واستعان الباحث فيه بتحليل أهداف السياسة الخارجية للدولة الإسلامية، ومنهج دراسة الوقائع في تحليل تفاعلات وأنشطة الديوان، كما وظفت الدراسة منهجاً وصفيّاً تصنيفياً في تحليل مكاتبات الديوان المختلفة وأغراض البعثات الدبلوماسية الإسلامية، كما استعانت الدراسة بأدوات علم الوثائق في تحليل طبيعة مكاتبات الديوان، وإبراز العلاقة بين الدبلوماسية والوثائق، واستعانت أيضاً بالمنهج القانوني المقارن لتقويم عمل الديوان على ضوء التطور العام للقانون الدبلوماسي باعتباره يمثل الإطار القانوني الذي يحكم الوظيفة الدبلوماسية المعاصرة. كما التقى التحليل مع مقولات الاقتراب الحضاري الإسلامي ومنهجية التجديد السياسي الإسلامي التي طورها عدد من الدراسات السياسية المعاصرة.

وقد تناولت الدراسة ديوان الإنشاء بوصفه الجهاز الذي قام بمهام وزارة الخارجية في الدولة الإسلامية في مقدمة، وستة فصول، وخاتمة.

فجاءت المقدمة عن دبلوماسية الدولة الإسلامية في عصر الدبلوماسية المؤقتة، لتتحدث عن مكانة الدولة الإسلامية بين القوى الدولية التي عاصرتها، ولتضع دبلوماسية الدولة الإسلامية في سياق التطور العام للنظم الدبلوماسية، حيث مارست دبلوماسية الدولة الإسلامية نشاطها في عصر الدبلوماسية المؤقتة التي عرفها العالم آنذاك.

وتناول الفصل الأول: التعريف بديوان الإنشاء ودلالاته اللغوية والاصطلاحية، فعُرِّفَ بالديوان وأصل تسميته، وبحث عن أصل الديوان في الدولة الإسلامية وما تعرّض له من مؤثرات فارسية وبيزنطية، وما لحقه بعد ذلك من تطور في الاستخدام المعاصر. وتناول الفصل الثاني: التطور العام لديوان الإنشاء

في الدولة الإسلامية، منذ دولة المدينة ثم في عصر الخلافة الراشدة، والدولة الأموية، والدولة العباسية، وفي الممالك الإسلامية التي استقلت عنها في بلاد فارس وما وراء النهر وفي الأندلس، في عهد الإمارة والخلافة، وفي مصر في ظل الخلافة العباسية، وفي عهد الخلافة الفاطمية، وفي العصر الأيوبي والعصر المملوكي، لتعرض الدراسة أهم سمات التطور العام الذي لحق بديوان الإنشاء منذ تأسيسه في دولة المدينة وحتى تكامله التنظيمي في العصر المملوكي. لترصد تطور الديوان من مرحلة لأخرى ومدى مواكبته لتطور أهداف السياسة الخارجية للدولة الإسلامية. وتناول الفصل الثالث: وظائف ديوان الإنشاء، فعرضت الدراسة للوظائف التي كان يضطلع بها الديوان، والتطور الوظيفي الذي لحق بتنظيمه، والعاملين فيه وأدوارهم، وسلطات كل من الخليفة وصاحب الديوان والوزير في توجيه نشاطه. وتناول الفصل الرابع: سياسات عمل ديوان الإنشاء، فحاولت الدراسة تحليل سياسات عمل الديوان في الدولة الإسلامية في مراحل تطورها المختلفة في فترات السلم وفي فترات الحرب، مع محاولة تحليل العوامل التي أثرت على سياسات عمل الديوان.

وتناول الفصل الخامس: أدوات ديوان الإنشاء في تنفيذ سياساته، فعرضت الدراسة للأدوات التي استخدمها الديوان في هذا الصدد ممثلة في أداتين رئيسيتين: الأولى المكاتبات التي كانت تصدر عن الديوان، وقد قدمت الدراسة تصنيفين لمكاتبات الديوان، وذلك استناداً لما أورده المصادر التاريخية ونماذج لهذه المكاتبات، والأداة الثانية التي اعتمد عليها الديوان في تنفيذ سياساته هي السفارات، وقد عرضت الدراسة لدور ديوان الإنشاء في إعداد وإيفاد واستقبال البعثات الدبلوماسية وأغراضها ونماذج عديدة لها في العلاقات الدولية للدولة الإسلامية في مختلف مراحل تطورها، وقد تناولت الدراسة هاتين الأداتين من خلال العديد من الأمثلة التي تبرز الجانب الحركي التطبيقي في عمل الديوان كما كان في واقع الدولة الإسلامية، مبرزة تفاعل نشاط الديوان وسياساته مع الأحداث الداخلية والخارجية التي عاشتها الدولة الإسلامية وما واجهته من أزمات، وفي سياق أهداف السياسة الخارجية للدولة الإسلامية. وتناول الفصل السادس تقويم عمل ديوان الإنشاء وعلى ضوء المهام التي قام بها وآثارها على مجمل سياسات الدولة الإسلامية الداخلية والخارجية، وعلى ضوء مخرجات عمل الديوان ممثلة

في تلك التي صدرت عنه وتلك التي تعد وثائق الدولة الإسلامية الرسمية والتي أبرزت العلاقة بين الدبلوماسية والوثائق على النحو الذي فصلته الدراسة، والتي أكدت الحاجة إلى دراسة مكاتبات الديوان باعتبارها الوثائق الرسمية للدولة التي يمكن أن تكشف لنا الجوانب الرسمية في سياسات الدولة الإسلامية الداخلية والخارجية. كما حاولت الدراسة أن تقوم بعمل ديوان الإنشاء في الدولة الإسلامية على ضوء ما تقوم به النظم السياسية المعاصرة وعلى ضوء تطور قواعد الدبلوماسية، فعقد الباحث مقارنة بين الديوان ووزارة الخارجية في النظم السياسية المعاصرة من عدة جوانب، وجاءت خاتمة الدراسة عن الوظيفة الدبلوماسية في الدولة الإسلامية على ضوء دراسة الديوان، وكيف قام بها.

وقد خلصت الدراسة إلى عدة نتائج، أبرزها:

- 1 - أن الدولة الإسلامية التي تطورت من دولة المدينة إلى الدولة الامبراطورية قد عرفت جهازاً لإدارة علاقاتها الخارجية هو (ديوان الإنشاء) قدمت الدراسة صورة استكشافية له من مصادر عديدة ورسمت صورة له كما عرفته الدولة الإسلامية.
- 2 - أن ديوان الإنشاء قد نشأ نشأة عربية إسلامية خالصة في تنظيمه ووظائفه وأهدافه وحركته، فهو أول ديوان عرفته الدولة الإسلامية استجابة لمقتضيات التأسيس وبناء الدولة الإسلامية الأولى في المدينة، وأن هذا الديوان تعرّض لمؤثرات خارجية مع امتداد حركة الفتوحات الإسلامية.
- 3 - قام ديوان الإنشاء بالمهام الدبلوماسية والقنصلية للدولة الإسلامية في مرحلة الدبلوماسية المؤقتة، وتوصف دبلوماسية الدولة الإسلامية في تلك الفترة بالدبلوماسية المتنقلة أو دبلوماسية المناسبات أو الدبلوماسية الخاصة قياساً على ما أقرته اتفاقية البعثات الدبلوماسية الخاصة عام 1969، كما احتضنت الدولة الإسلامية النظام القنصلي الذي نشأ في الشرق الإسلامي ثم انتقل إلى أوروبا حيث واصل تطوره.
- 4 - عرف ديوان الإنشاء تنظيمياً محكماً وقواعد تضبط نشاطه ورسوماً دقيقة لمكاتباته ومراسم خاصة لنشاطه، وكان مركزاً لصنع القرار في الدولة الإسلامية، وتوجيه الدواوين الأخرى في الدولة الإسلامية.

5 - أبرزت دراسة ديوان الإنشاء الصلة الوثيقة بين الدبلوماسية والوثائق، وتصنف الدراسة مكاتبات الديوان على أنها «وثائق رسمية ديوانية عامة» وفقاً لقواعد علم الوثائق، كما خلصت الدراسة إلى أن دراسة الوثائق الدبلوماسية يمكن أن تستقل كعلم فرعي عن كل من الدبلوماسية والوثائق بما تملكه من موضوع ومادة للبحث وأدوات منهجية.

6 - كانت الأداة الدبلوماسية في مقدمة أدوات التعامل الدولي بين الدولة الإسلامية والقوى الدولية التي عاصرتها، وقام ديوان الإنشاء على تحقيق أهداف الوظيفة الدبلوماسية في الدولة الإسلامية والتي تمثلت وفق مراحل التطور التي مرت بها السياسة الخارجية للدولة الإسلامية في:

أ - الدعوة إلى الإسلام وحماية الدولة الإسلامية ومصالحها ورعاياها.

ب - تنظيم العلاقات بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى غير الإسلامية في أوقات السلم، وفي أوقات الحرب، وتنظيم تبادل العلاقات الودية التجارية والثقافية والعلمية معها.

ج - توثيق الصلات بين الدول الإسلامية بعضها البعض في أوقات السلم، وتوحيد صفوفها وتعبئتها لمواجهة الأخطار والتهديدات الخارجية في أوقات الحرب.

واختتم الباحث الدراسة بعدة توصيات لدعم الدراسات الدبلوماسية الإسلامية وربطها بالدراسات الدبلوماسية المعاصرة أهمها:

1 - دعم الجهود البحثية الجماعية المشتركة، ذلك أن تحليل دبلوماسية الدولة الإسلامية في مراحل تطورها المختلفة يحتاج إلى مواصلة الجهود البحثية التكاملية التي تضم باحثين يتمتعون لتخصصات متعددة تشمل العلوم السياسية بفروعها المختلفة، كالتاريخ، والوثائق، واللغات والأدب، والعلوم الإسلامية. ويحبذ أن تُجرى تحت إشراف مؤسسات عملية كالجامعات ومراكز البحوث المتخصصة أو مراكز تابعة لهيئات أو منظمات دولية كتلك التابعة للجامعة العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والمجامع العلمية.

- 2 - ضرورة مواصلة البحث في دواوين الإنشاء التي عرفتھا الدولة الإسلامية في مراحل تطورها المختلفة، بالبحث عن المصادر التي قد تكون قد كتبت عن الديوان في المخطوطات والمصادر العربية المختلفة التي لم تُحقَّق بعد في المكتبات العربية والأرشفات الأوروبية، وفي المصادر الإسلامية التي قد تكون سُجِّلَت باللغات الفارسية، أو التركية، أو الهندية أو الأوروبية وإخضاعها لدراسات تفصيلية وفق منهجية ملائمة تضع نشاط تلك الدواوين في سياق التطور الذي عاشته الدولة الإسلامية وعلاقاتها الخارجية.
- 3 - تطوير مراكز التحقيق والتوثيق للمخطوطات والوثائق والكتابات الإسلامية ودعمها بالخبرات العلمية المتخصصة في مجالات الوثائق واللغات والتاريخ والعلوم السياسية وغيرها من العلوم الأخرى ذات الصلة بموضوعات التحقيق والتوثيق، ونشر إنتاجها العلمي للباحثين في المجالات المعرفية المختلفة وخاصة الكتابات المتعلقة بالدراسات الدبلوماسية.
- 4 - تطوير المراكز المعنية بدراسات الحضارة الإسلامية في الجامعات والمنظمات العربية والإسلامية المتخصصة كي يتسنى إعداد دراسات تفصيلية تعيد كتابة وتوثيق تاريخ حضارتنا الإسلامية وتحلل جوانب إسهاماتها المختلفة، بما في ذلك نشاطها الدبلوماسي، وتخلق التواصل بين ماضي وحاضر ومستقبل أمتنا من ناحية، وتدعم هذا التواصل بينها وبين عالمنا المعاصر من ناحية أخرى.
- 5 - تطوير أقسام ومراكز متخصصة لدراسة دبلوماسية الدولة الإسلامية في سياق الدراسات الدبلوماسية المعاصرة، وإعداد وحدات بحثية جماعية من خلال الجامعات، والجامع العلمية والمنظمات الدولية، كالجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي لتطوير ودعم البحوث والدراسات الدبلوماسية الإسلامية.
- 6 - نشر الكتابات والبحوث والدراسات المتخصصة عن دبلوماسية الدولة الإسلامية، وترجمتها إلى اللغات الأجنبية، ونشرها في الدوريات العالمية المتخصصة ونشر نتائجها في الجامع العلمية وفي الندوات والمؤتمرات العلمية المعنية لإيصال نتائجها لوزارات الخارجية في بلدان العالم الإسلامي، وللجهات المعنية بالتعرف على الدبلوماسية الإسلامية.

- 7 - إعطاء أولوية خاصة في الدراسات الدبلوماسية العربية - وخاصة السياسية والقانونية منها - للقواعد الدبلوماسية التي أقرتها الشريعة الإسلامية، وللإجتهادات الفقهية في هذا المجال، وللخبرة التاريخية الإسلامية التي تفاعلت مع تلك القواعد، وتعميق البحث والدراسة لتطوير الاجتهادات الفقهية في الموضوعات والقضايا الدبلوماسية المعاصرة على ضوء الأصول الإسلامية، ومواصلة البحث والدراسة المقارنة على ضوء تطور القواعد الدولية الخاصة بالدبلوماسية.
- 8 - تبادل الخبرات مع المراكز البحثية المتخصصة والجامعات والمعاهد والأكاديميات العلمية المعنية بالدبلوماسية في العالم، وبلورة رؤية إسلامية واضحة المعالم كأساس للحوار، وتبادل المعرفة العلمية في هذا المجال، وفي مجال التعامل الدولي وطرحها في تلك المحافل، ومناقشة القضايا والمسائل التي قد تثار بشأنها بما يدعم من تفاعل وتوظيف القواعد والمبادئ التي أرساها الإسلام في مجال الدبلوماسية - وأكدتها الخبرة التاريخية الإسلامية في الممارسة - مع الدبلوماسية المعاصرة.
- 9 - تطوير برامج تدريبية - عملية وحلقات نقاشية للدبلوماسيين في وزارات الخارجية في بلدان العالم الإسلامي للتعرف على آليات وأدوات الدبلوماسية الإسلامية في التعامل الدولي، وإدخال المتغيرات العالمية الجديدة ودراسة تأثيرها على الأداء الدبلوماسي لبلدان العالم الإسلامي، وكيف يمكن التفاعل مع تلك المتغيرات في سياق التطور الذي لحق بقواعد ونظم الدبلوماسية.
- 10 - السعي لإعداد وإصدار موسوعة متخصصة عن الدبلوماسية الإسلامية في سياق التطور العام لقواعد الدبلوماسية تأخذ بعين الاعتبار التواصل مع الدراسات الدبلوماسية المعاصرة.